السكينة

مارتن هيدجر

ترجمة: رشيدة السائحي

لن يكون أول كلام أحظى بشرف إلقائه بين جمهور مسقط رأسي إلا كلام شكر. شكرا لبلدي على كل ما قدمه لي والذي ساعدني في هذا الدرب الطويل. أين تكمن هذه الهبات؟ حاولت عرض ذلك في بضع صفحات نشرت تحت عنوان "طريق البادية" سنة 1949 في المجلد التذكاري الذي نشر بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة كونرادين كروتزر Conradin[1] شكرا كذلك للسيد العمدة Schüle على حفاوة استقباله. لكني سأضيف كلمة امتنان خاصة بمناسبة المهمة الرائعة التي كلفت بها وأتناول الكلمة خلال هذا الحفل اليوم.

أنتم يا كل من جمعتكم الحفلة

أعزائي قاطني مسقط رأسي

ها نحن مجتمعون لنحيي ذكرى ابن منطقتنا الملحن كونوادين كونرادين. إذا أردنا أن نحتفل بأحد هؤلاء الرجال الذين دعوا لإبداع عمل ما علينا أولا إلا أن نشرف العمل بما يليق به. فإذا كان موسيقيا نعمل على إسماع ألحانه.

ترن في هذا اليوم إذن مختارات من أعمال كروتزر؛ ألحان ومقطوعات من الأوبرا وموسيقى الغرف. الأستاذ حاضر بنفسه هنا وسط هذه الأنغام: ذلك أن حضور الأستاذ في عمله هو الحضور الوحيد الأصيل. كلما كان الأستاذ كبيرا، كلما اختفت شخصيته خلف عمله، لكن هل يكفي هذا في حفلة تذكارية؟ كل تذكار يتطلب منا أن نفكر. لكن فيما سنفكر، ماذا سنقول، في حفلة تذكارية خاصة بأحد الموسيقيين؟ أليس ما يميز الموسيقى هو أنها "تكلمنا" بمجرد إسماع نفسها لنا وبالتالي فهي ليست بحاجة إلى خطاب عادي الذي هو خطاب كلمات؟ هذا صحيح. ومع ذلك يظل السؤال قائما: هل حيث نحيي حفلة بموسيقى صوتية وآلية يكون المكان، الذي نحيي فيه، حفلة نفكر فيها؟. نادرا ما يحصل ذلك على ما يبدو. لذا سجل منظمو هذا

اليوم في برنامجهم " خطابا تذكاريا". وموضوعه مساعدتنا على التفكير أساسا في الملحن المحتفى به وفي عمله. هذا التذكار يصبح حيا كلما تذكرنا حياة كروتزر، وأحصينا ووضعنا أعماله. مثل ذلك الحديث يعلمنا أشياء كثيرة سعيدة أو مؤلمة أو نموذجية. وهو في العمق غذاء خفيف لعقولنا. لكن لا شيء يرغمنا، في نفس الوقت، على التفكير، بمعنى أن نتأمل موضوعا يخص كلا منا، مباشرة وفي كل لحظة، في كينونته. لذا لا يضمن لنا هذا الخطاب التذكاري نفسه أن تكون الحفلة التذكارية مناسبة للتفكير.

نحن لا نتوهم، غالبا ما يحدث لنا جميعا أن نكون ذوي تفكير فقير: أقول "لنا جميعا"، ومن ضمنهم أولئك الذين يفكرون استجابة لواجب مهني. وهكذا نسقط جميعا وبسهولة في فقر التفكير. فقر التفكير ضيف ثقيل ينتشر حاليا في العالم بأسره. لأن كل شيء اليوم يتعلم بالطريقة الأكثر سرعة والأكثر اقتصادا. وفي اللحظة التي تليها ينسى كل شيء بالسرعة نفسها. هكذا فإن احتفالا ما سيزيحه قريبا احتفال أخر. تصبح الحفلات التذكارية أكثر فأكثر فقرا من ناحية التفكير. وبذلك تلتقي وتتجاوب الحفلة التذكارية أكثر فأكثر فقرا من ناحية التفكير. وبذلك تلتقي وتتجاوب الحفلة التذكارية مع غياب التفكير بشكل جيد.

لكننا، في حقيقة الأمر، ورغم أننا محرومون من التفكير لم نقطع مع قدرتنا على ممارسته، فنحن نستخدمها بالضرورة، وإن كان ذلك يحدث بطريقة غريبة، بحيث نترك، في غياب التفكير قابليتنا للتفكير تخلد للراحة. لكن وحدها الأرض الخصبة هي ما يترك ليستريح كالحقل مثلا. فالطريق السيار الذي لا ينبت فيه شيء لا يمكن أن يصبح أرضا خصبة تستريح. كما أننا لا نستطيع أن نصبح صما إلا لأننا نسمع أساسا، وإن كنا نستطيع أن نهرم فلأننا كنا صغارا. نفس الشيء ينطبق على التفكير فإن كنا نستطيع أن نصبح فقراء تجاهه أو محرومين منه فذلك لأن الإنسان يملك في عمق كينونته القدرة على التفكير: "العقل والفهم" وذلك لأن قدره هو أن يفكر. فما نملكه، عن علم أو بدونه، هو وحده ما يمكن أن نفقده أو نتجاهله. يقوم ضعف التفكير المتنامي على سيرورة تهاجم جوهر الإنسان المعاصر الأكثر خصوصية وبذلك ينفرد هذا الأخير من التفكير. هذا الهروب من التفكير يفسر حاجتنا للتفكير. وهو يفترض بدوره أن الإنسان لا يريد رؤية هذا الهروب ولا مواجهته. وقد ينكر الإنسان اليوم مطلقا ما سبق ويؤكد العكس، سيؤكد ـ وهو محق في هذا ـ على أن عصرنا عرف العديد من الدراسات المتنوعة والمخططات والأبحاث المدهشة. لاشك أن مثل هذا التفكير ذو فائدة كبيرة وهو ضروري كذلك، ومع ذلك.. فإنه تفكير ذو خصوصية متميزة.

تتمثل خصوصيته في مايلي: حينما نرسم برنامجا، أو نشارك في بحث ما، أو ننظم مؤسسة، فإننا نحسب دائما وفق ظروف وشروط مسبقة. ونضع كل هذا في حساب يصبو إلى بلوغ أهداف معينة. إننا نتوقع مسبقا أهدافا محددة. وهذا الحساب يميز كل تفكير مخطط وكل بحث. مثل هذا التفكير أو البحث يظل حسابا حتى

حينما لا نعتمد على أرقام ولا نستعمل آلات حاسبة أو آلات إلكترونية. التفكير الذي يعد يحسب. وهو يخضع للحساب دائما كل الاحتمالات الجديدة ذات الرؤى الغنية أكثر فأكثر وفي الآن نفسه الأكثر اقتصادا بحيث لا يترك لنا الفكر الحاسب والفكر أية هدنة ويزج بنا من فرصة لأخرى. الفكر الحاسب لا يتوقف أبدا ولا يغوص في داخله؛ وهو ليس فكرا تأمليا، فكرا يقتفي أثر المعنى الذي يغشى كل ما هو كائنك.

هناك نوعان من التفكير كل منهما مشروع وضروري: الفكر الحاسب والفكر المتأمل. وحينما نشير أنه يسبح في الأعلى، وأن لا صلة له بالواقع، وأنه لا يساعد على إنجاز الأعمال المألوفة، ولا يساهم في تحقيق الإنجازات ذات الطابع العملي.

ولكي ننهي، نضيف بأن التأمل المحض والمجرد هو تفكير بطيء ويتطلب صبرا كما أنه "متعال" على الفهم العادي. من بين هذه الذرائع لا نقبل إلا بشيء واحد وهو أن الفكر المتأمل أقل تلقائية بالمقارنة مع الفكر الحاسب. الفكر المتأمل يتطلب مجهودا وتمرينا طويلا، كما يتطلب عناية دقيقة أكثر من أية مهنة رسمية. وهو يتطلب أيضا، كما يفعل الفلاح، أن يتعلم انتظار الحبة حتى تنمو والسنبلة حتى تنضج.

من جهة أخرى يمكن لكل واحد منا، حسب طريقته وفي حدود إمكاناته أن يقتفي دروب التأمل. لماذا؟ لأن الإنسان هو الكائن المفكر أي المتأمل. وبالتالي ليس من الضروري أبدا أن يحملنا التأمل إلى "مناطق عليا" . يكفي أن نتوقف عندما هو قريب منا وأن نبحث عما هو أكثر قربا، أي عما يهم كل واحد منا، هنا، في هذا الحيز من مسقط الرأس، والآن: أي في الساعة التي تدق حسب توقيت العالم.

لنفترض أنه أجيز لنا أن نجعل من الحفلة الحالية موضوعا للتأمل. فبماذا توحي لنا في هذه الحالة؟

سنلاحظ أن أي عمل فني يتأسس ويكتمل انطلاقا من مسقط الرأس. إن نحن ركزنا انتباهنا على هذا الحدث البسيط، كيف لا يمكن أن نتذكر فورا أن أرض سواب (Souabe) أنتجت، في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، شعراء كبارا؟ لننظر أبعد: علينا أن نعترف بأن ألمانيا في القرون الوسطى كانت، بهذا المعنى، أرضا خصبة، ويمكننا أن نقول الشيء نفسه عن بروسيا الشرقية وسليسيا وبوهيميا. وهكذا ما يدفعنا للتفكير أكثر فنتساءل: هل يقتضي نجاح كل عمل قيم التجذر في مسقط الرأس؟ كتب يوهان بيتر هيبل: "سواء رضينا أم لم نرض فنحن نباتات تستند على الجذور، عليها أن تخرج من الأرض، لتزدهر في الأثير وتعطي ثمارا". ما يريد الشاعرقوله هو أنه لكي يتكون العمل الإنساني، القوي والصالح هنا، ولكي يكتمل يجب على الإنسان أن ينطلق من مسقط الرأس ليرتفع في الأثير. المقصود "بالأثير" هنا: هواء أعالي الجبال الحر، ميدان الروح المنفتح. يدفعنا هذا الأمر للتفكير والتساؤل: ماذا عن ملاحظات يوهان اليوم؟ هل باستطاعتنا

أن نتحدث عن مكان آمن للإنسان بين الأرض والسماء؟ أما تزال روح التأمل سائدة في البلد؟ أما زال يوجد ذلك البلد الأم الذي تستمد منه جذورنا القوة، ويسكن فيه الإنسان أي حيث يملك مسكنه؟

كثيرون هم الألمان الذين طردوا من ديارهم، والذين أجبروا على ترك قراهم أو مدنهم وفقدوا مسقط رأسهم. وكثيرون منهم دمرت مساكنهم فغادروها. وجرفتهم الدوامة الكبرى وليس لهم أي خيار غير صحراء المناطق الصناعية، وأصبحوا غرباء عن بلدهم الأصلي. وماذا عن الذين مكثوا فيه؟ ليس غريبا أن تقتلع جذورهم أكثر من اللاجئين، في كل أيام السنة ولساعات طويلة يوميا يجلسون مبهورين أمام جهاز الراديو أو التلفاز. تأخذهم السينما كل أسبوع من وسطهم وتغوص بهم في جو من التمثلات غير المعتادة، وإن كانت في معظم الأحيان عادية جدا، توحي بعالم لا مثيل له. أو يهيمنون والجريدة الأسبوعية بين أيديهم. كل ما يعرض أمام الإنسان ساعة تلو أخرى بواسطة وسائل الإعلان التي يملها اليوم، يدهشه، ويثيره، وينعش خياله، بحيث يصبح ذلك أقرب إلى الإنسان من الحقل الذي يحيط بمنزله والذي يملكه، أقرب إليه من أعراف وعادات بلدته، ومن تقاليد العالم الخاص به.

كل هذا يدفعنا للتفكير أكثر فنتساءل: ماذا يحدث هنا بالنسبة للاجئين أو هؤلاء الآخرين؟ الجواب: إن جذر الإنسان اليوم مهدد في كينونته الأكثر حميمية. أكثر من ذلك: لا ترجع أسباب اقتلاع الجذور إلى ظروف خارجية أو إلى حتمية القدر، وهو ليس نتيجة لإهمال الإنسان فحسب ولنمط حياته السطحية. لقد نشأ اقتلاع الجذور عن روح العصر الذي أوقعنا فيه تاريخ ميلادنا.

هذا ما يدعونا إلى التفكير أكثر وإلى أن نتساءل: إذا كان الأمر كذلك، هل يمكن للإنسان في المستقبل أن يتطور، هل يمكن لعمله أن ينضج، انطلاقا من مسقط الرأس الموجود مسبقا، هل يمكنه أن يرتفع بالتالي في الأثير أي في امتداد السماء والروح؟ أم أن كل شيء سيكون في قبة التخطيط والحساب، والتنظيم والتأليل؟

إن نحن حاولنا أن نتأمل ما توحي به لنا الحفلة الحالية سنلاحظ أن عصرنا مهدد باقتلاع الجذور، ونتساءل: ماذا يحدث في عالمنا؟ وما الذي يميزه إذن؟

يحمل العصر الذي نحن مشرفون عليه اسم "العصر الذي". طابعه المميز والأكثر وضوحا هو القنبلة الذرية. لكن مايزال هذا الطابع سطحيا: لأننا ما نلبث أن نعترف بإمكانية استخدام الطاقة الذرية لغايات سلمية. لذا يجتهد علماء الذرة وتقنيوهم في العالم بأسره، ضمن منظمات كبرى، للتأكيد على الاستعمال السلمي للطاقة الذرية. وقد تنبهت الشركات الصناعية الكبرى في الدول ذات التقنية العالية، وعلى رأسها

إنجلترا، إلى تحويل الطاقة الذرية إلى مشروع ضخم. ونعتقد بذلك أننا اكتشفنا في مشروع الطاقة الذرية ضربا من السعادة الجديدة. علماء الذرة بدورهم يعلنون هذه السعادة. هكذا ففي يوليوز من هذه السنة (1955) أعلن ثمانية عشر من الحاصلين على جائزة نوبل المجتمعين في جزيرة مينو حرفيا في نداء لهم "العلم ـ والمقصود هنا علم الطبيعة الحديث جدا ـ هو طريق يقود إلى حياة أكثر سعادة بالنسبة للإنسان".

ماذا يعني هذا النداء؟ هل هو صادر عن جهد في التأمل؟ هل يبحث عن معنى للعصر الذري؟ لا. إن نحن اعتبرنا إعلان العلماء مرضيا، فسنظل بعيدين عن تأمل العصر الحالي. لماذا؟ لأننا نسينا أن نفكر. لأننا نسينا أن نتساءل: إلى ماذا تعزى قدرة التقنية العلمية على اكتشاف طاقات طبيعية جديدة؟

يعزى الأمر إلى مايلي: منذ قرون عدة حدث انقلاب في التمثلات الأساسية. وأصبح الإنسان خاضعا لحقيقة أخرى. وقد حدثت هذه الثورة الجذرية في رؤيتنا للعالم في الفلسفة الحديثة. ونتج عنها موقف جديد تماما للإنسان في العالم وتجاه العالم. أصبح العالم الآن موضوعا يوجه إليه التفكير الحاسب هجوماته، ولا شيء يمكنه مقاومة هذه الهجومات. أصبحت الطبيعة خزانا فريدا هائلا ومنجما للطاقة بالنسبة للتقنية والصناعة الحديثتين. ظهرت هذه العلاقة التقنية المحضة التي تربط الإنسان بكل شيء في العالم لأول مرة في القرن السابع عشر في أروبا وبأروبا وحدها. ظلت هذه العلاقة ولمدة طويلة مجهولة في باقي أنحاء العالم. كانت غريبة كليا عن المراحل السابقة وعن مصير شعوب تلك المرحلة. تحدد القوة الخفية الكامنة في التقنية المعاصرة علاقة الإنسان بما هو كائن. إنها تبسط هيمنتها على الأرض كلها. لقد بدأ الإنسان في الابتعاد عن الأرض ليدخل في الفضاء الكوني. في المستقبل القريب نسبيا ستغطى الحاجيات العالمية من الطاقة بكل أنواعها. لكن لن يكون الأمر كما هو الحال عليه بالنسبة للفحم، البترول أو خشب الغاب، عندما تستفيد بعض الدول أو بعض مناطق العالم من مصدر الطاقة الجديد. وفي المستقبل القريب جدا ستقام مراكز ذرية في كل مناطق الأرض. ليست المسألة الأساسية في العلم والتقنية المعاصرتين هي معرفة من أين سنستخرج الكميات اللازمة من المحروقات والوقود. السؤال الأساسي اليوم: كيف يمكن أن نتحكم ونذير هذه الطاقات الذرية التي تتجاوز في ضخامتها كل خيال بحيث نضمن للإنسانية أن لا تنفلت هذه الطاقات دفعة واحدة ـ حتى وإن لن تكن هنالك حالة حرب ـ من أيدينا، فتجد منفذا وتدمر كل شيء؟

إن نحن نجحنا في التحكم في الطاقة الذرية وسننجح في ذلك، سيبدأ تطور جديد للعالم التقني. تقنيات الفيلم والتلفزة، تقنيات النقل وخاصة الجوية منها، تقنيات الإعلام، التغذية، فن العلاج. كل هذه التقنيات كما نعرفها اليوم ليست إلا محاولات أولى. لا أحد يستطيع أن يتكهن بالتقلبات التي ستحدث. لكن سيصبح تقدم التقنية أكثر تسارعا، دون أن نتمكن من توقيفه. سيجد الإنسان نفسه، في كل مجالات الوجود، محاصرا

أكثر فأكثر بقوة الأجهزة التقنية والأوتوماتيكية. منذ مدة وفي كل مكان وساعة، والقوى، سواء كانت في كل أدوات أو منشآت تقنية، تحتكر وتغط على الإنسان، تحده أو تقوده، أقول: إن هذه القوى قد تجاوزت بكثير ومنذ زمن طويل، إرادة ومراقبة الإنسان مادامت لم تنشأ عنه. لكن هنا يكمن الطابع الجديد الذي يميز العام التقني ألا وهو السرعة الهائلة التي عرفت بها هذه النجاحات وأعجب بها العام. هكذا فما أقوله لكم حول موضوع العالم التقني، يمكن لأي كان أن يعيد قراءته اليوم في نشرة مصورة أديرت بمهارة أو أن يسمعه في الراديو. لكن... أن نقرأ أو نسمع هذا أو ذاك بمعنى أن نعرف فقط، شيء، وشيء آخر نكتسب معرفة حولها أي أن نمسك بها بواسطة الفكر.

في صيف 1955, أقيمت ندوة عالمية جمعت من جديد في Lindan الحائزين على نوبل. وفي هذه المناسبة لاحظ الكيميائي الأمريكي ستانليStenley مايلي: "اقتربت الساعة التي أصبحت فيها الحياة بين أيدي الكيميائيين الذين سيغيرون أو يحولون المادة الحية حسب هواهم". علمنا بهذا التصريح. وحبذنا كذلك جرأة الأبحاث العلمية وتوقفنا عند هذا الحد. لم ندرك أن ما تهيئه لنا الوسائل التقنية هو عنف ضد الحياة، وضد كينونة الإنسان نفسه. وفي مقابل هذا العنف فإن انفجار قنبلة هيدر لا يعني شيئا كبيرا، مادام الإنسان سيستمر في العيش على أرض يقودها العصر الذري نحو تحول مقلق للعالم.

ما هو مقلق مع ذلك ليس التقنين الكلي للعالم. ما يقلق أكثر هو عدم استعداد الإنسان لهذا التحول. لا نستطيع بعد أن نشرح بشكل كاف، بواسطة وسائل التفكير التأملي، ما يظهر أمام أعيننا بشكل خاص في عصرنا.

لا يمكن لأي فرد، لأية مجموعة إنسانية ولا لأية لجنة مهما كانت مكونة من رجال سامين في الدولة، علماء كانوا أم تقنيين، ولا يمكن لمحاضرات رؤساء الصناعة والاقتصاد، أن توقف توجه التلاحق التاريخي للعصر التقني. وليس بإمكان أية منظمة إنسانية أن تأخذ بزمام أمور عصرنا الحالي. وبذلك يخضع إنسان العصر الذري، دون نصح ولا مقاومة، للمد المتسارع للتقنية. وإنه ليصبح كذلك بالفعل ما حيثما أضحت اللعبة مقننة، واستُعيضَ عن الفكر المتأمل بالعقل الحاسب فقط. ولكن إذا كان على الفكر التأملي أن يصبح على استعداد دائم لاقتناص أدنى فرصة، فهذا ما يجب أن يقوم به الآن، وهنا بالذات، وخاصة بمناسبة حفلتنا التذكارية هذه. ذلك أن هذه الأخيرة تدفعنا لتأمل التهديد المرتبط بالعصر الذري: أي لتجذر الأعمال الإنسانية في مسقط الرأس. وهنا نتساءل: إن كان التجذر القديم قد بدأ في الاندثار، أليس من الممكن أن تقدم للإنسان وهو في طريق العودة، قطعة أخرى جديدة تربة أخرى جديدة، أرض يستمد منها الإنسان طاقة جديدة لتتطور في قلب العصر الذري ذاته؟ كيف ستكون تربة أرض التجذر الجديد؟ لعل ما نبحث عنه

بتساؤلنا على هذا النحو "شيء" قريب منا: قريب جدا بحيث يسهل علينا كثيرا أن لا نراه. ذلك أنه بالنسبة لنا نحن البشر، يكون الدرب نحو ما هو قريب منا هو دائما الأطول وبالتالي الأصعب. الدرب هو طريق التأمل. يتطلب منا التفكير التأملي أن لا نكتفي بمهر واحد للأشياء، وأن لا نكون سجناء تصور واحد، وأن لا نرتمي في طريق وحيد ذي اتجاه واحد. يفرض علينا التأمل أن تقبل بالتوقف عند الأشياء التي تبدو لأول وهلة متنافرة.

لنحاول أن نقوم بذلك. لقد أصبحت تنظيمات وأجهزة وآلات عالم التقنية ضرورية بالنسبة لنا بنسبة أكبر عند البعض وأقل عند آخرين، فلا معنى لأن نهاجم، برؤوس مطأطأة، العالم التقني. سيكون دليلا على قصور النظر نعت عالم التقنية بالعمل الشيطاني. فنحن مرتبطون بموضوعات التقنية وهي من جانبها ترغمنا على استحسانها، إن ارتباطنا الحالي بالأشياء التقنية قوي بحيث أصبحنا عبيدا لها من حيث لا ندري.

ليس بإمكاننا أن نستعمل الأشياء التقنية وأن نستخدمها بطريقة عادية وأن لا نظل مبهورين بها، وأن نتحرر منها في نفس الوقت، بحيث نحتفظ دوما بمسافة تجاهها. بإمكاننا أن نستعمل الأشياء التقنية كما يجب أن تستعمل. بيد أننا نسطيع أن نقول لها "لا"، بالمعنى الذي نمنعها فيه من أن تستأثر بنا وتحتكرنا وبالتالي أن تزيف وتفسد وتفرغ وجودنا. لكن عندما نقول في الآن نفسه "نعم" و"لا" للتقنية، فهل ستصبح علاقتنا بعالم التقنية غامضة وغير يقينية؟ على العكس ستصبح علاقتنا بالعالم التقني بسيطة ووديعة. بحيث نقبل بالموضوعات التقنية في عالمنا اليومي، وفي نفس الوقت نتركها بعيدا عنا، بمعنى أن لا نعتبرها أشياء مطلقة بل ترتبط بما هو أكبر منها. يحضرنا لفظ قديم يدل على هذه الموقف الذي نقول فيه نعم ولا في الآن نفسه لعالم التقنية: إنه لفظ Gelassenheit "السكينة"، "اعتدال الروح". لنتحدث إذن عن اعتدال الروح في حضور الأشياء.

إننا لا ننظر من خلال هذا الموقف إلى الأشياء من وجهة نظر التقنية وحدها، بل ننظر بشكل أوضح، ويبدو لنا أن صنع واستعمال الآلات يتطلب منا، دون شك، موقفا آخر من الأشياء. لكن هذا الموقف بدوره ليس خاليا من المعنى. هكذا، تحولت الفلاحة، مثلا، إلى صناعة مجهزة من قبيل الصناعة الغذائية. لقد حدث هنا بالتأكيد وكما في ميادين أخرى، تحول عميق في علاقة الإنسان بالطبيعة وبالعالم. أي معنى يحمله هذا التحول؟. هذا ما يظل غامضا.

هكذا يسود في كل السيرورات التقنية معنى واحد، يحتاج لنشاط وراحة الإنسان، وهو معنى لم يخترعه الإنسان أو يؤسسه: لا ندري ما الذي تسير نحوه سيطرة التقنية الذرية التي بدأ ثقلها يقلق. يحتجب معنى

العالم التقني. وإن نحن تأملنا، باستمرار وبشكل خاص هذا الحدث، في كل مكان من العالم التقني، نصطدم بمعنى خفي. نجد أنفسنا هنا بالذات في ميدان الشيء الذي يحتجب حين يتقدم نحونا. أن يترك الشيء نفسه يلمح بهذا الشكل ليحتجب في الآن نفسه، أليس هذا هو ميزة ما أطلقنا عليه السر؟ لنقدم اسما لموقفنا الذي نظل فيه منفتحين على السر الخفي لعالم التقنية، فلنطلق عليه: العقل المنفتح على السر. لا ينفصل اعتدال الروح أمام الأشياء عن العقل المنفتح على السر. بحيث يمكننا من المكوث بين الأشياء بطريقة جديدة تماما. إنهما يعداننا بأرض أخرى وتربة أخرى بحيث نظل في العالم التقني لكن بعيدين عن تهديده، نستطيع أن نمكث ونستمر.

يكشف لنا اعتدال الروح أمام الأشياء، والعقل المنفتح على السر، عن منظور تجذر مستقبلي. ويمكن أن يصبح هذا الأخير قويا ليذكرنا، في شكل جديد، بالتحذير القديم الذي اختفى بسرعة انتظار ذلك ـ لسنا ندري كم من الزمن ـ ستظل الإنسانية على هذه الأرض في وضعية خطيرة. لماذا؟ هل بسبب اندلاع حرب عالمية ثالثة. قول غريب!. غريب بالتأكيد ما دام تأملنا لم يتوقف عند هذا الأمر. إلى أي حد يحمل هذا القول معنى ما؟ في النطاق الذي يمكن فيه للثورة التقنية التي تتصاعد نحونا منذ بداية العصر الذري أن تسحر الإنسان، تبهره وتدير رأسه وتفتنه بحيث يصبح الفكر الحاسب هو الوحيد المقبول والممارس.

أي هول يهددنا إذن؟ إنها البراعة المدهشة، البراعة المدهشة والخصبة للحساب الذي يخترع ويخطط والتي ترتبط باللامبالاة تجاه الفكر التأملي، أي غياب التفكير المطلق. وماذا بعد؟ بعد ذلك سينكر الإنسان ويتخلى عن أهم خصائصه التي يملكها، أي كونه كائنا مفكرا. يتعلق الأمر بأن ننقذ ماهية الإنسان هذه. ويتعلق الأمر بأن نجعل التفكير في حالة يقظة.

لكن اعتدال الروح أمام الأشياء، والعقل المنفتح على السر، لن يسقطا علينا جاهزين من السماء. إنهما ليسا أشياء عرضية. بل يحتاجان معا، لكي يظهرا ويتطورا، إلى التفكير الذي يتدفق من قلب الإنسان والذي يكد باستمرار.

ربما يحثنا احتفال اليوم على بذل هذا الجهد. وبرضوخنا لهذا القول، فإننا نفكر في كونرادين كروتزر بتأملنا لنقطة انطلاق عمله، أي القوى التي استمدها من مسقط رأسه بأوبرج Heuberg. فنحن الذين نفكر بهذا الشكل، عندما نتعرف على أنفسنا هنا والآن، كأناس يجب عليهم أن يجدوا ويهيئوا دربا يقود إلى قلب العصر الذري ومن خلاله. حينما يستيقظ فينا اعتدال الروح أمام الأشياء، والعقل المنفتح على السر، نستطيع

آنذاك أن نأمل الوصول إلى درب يقود إلى أرض جديدة وتربة جديدة، بحيث يمكن لإبداع الأعمال الخالدة أن يتجذر من جديد في هذه التربة.

هكذا تصبح، على نحو مختلف وفي عصر آخر، قولة يوهان بيتر هيبل صحيحة من جديد: "سواء رضينا أم لم نرض فنحن نباتات تستند إلى جذور، عليها أن تخرج من الأرض لتزدهر في الأثير وتعطي ثمارا".

هوامش

1 ـ كونرادين كروتزر، المقصود هنا هو مؤلف موسيقى ألماني (1786 ـ 1849)

* ـ أي بالاغتراب والاستلاب: انظر: **رسالة في النزعة الإنسانية**.